في انتظار المنتظر

" مفتتح "

" قد ينتصر الأعداء على غزة، وقد ينتصر البحر الهائج على جزيرة ..قد يقطعون كل أشجارها، قد يكسرون عظامها.. قد يزرعون الدبابات في أحشاء أطفالها ونسائها وقد يرمونها في البحر أو الرمل أو الدم ، ولكنها لن تكرر الأكاذيب، ولن تقول للغزاة :نعم وستستمر في الانفجار..!!"

الشاعر / محمود درويش

فور انتهائنا من تناول العشاء ، رحنا نقبل أيادينا حامدين الله شاكرين إيَّاه على نعمائه الكثيرة ، وقبل أن نذهب إلى النوم ، وقفت أصطف بجوار إخوتي الثمانية "غزة" و "عزة" و "انتصار" و "أمل" و "رجاء" و "إسلام" و "صابرة" و"ناصرة" صفاً واحداً ، وبجوارنا وقفت أمي ، وأمامنا وقف أبى رافعاً يده إلى عنان السماء ، يردد في قوة بصوته العالي الشهادة ، ومن خلفه رحنا نرددها في صوت واحد ..

ننتهي من تلاوة الشهادة التي اعتدنا عليها كل ليلة ، في حنو وخوف راح أبى يقبلنا تباعاً ومن خلفه أمي التي تربع على وجهها الخوف ..

يشعل أبى اللمبة السهارى نمرة خمسة ، بعدما أُطْفئ مصباح البيت كله، ندخل حجرة نومنا الواسعة جداً ، رحنا نتراص بجوار بعضنا صفاً واحداً بعرض الحجرة، وفى الجانب الآخَر يلتصق أبى بأمي ، فمنذ أن اشتدت هجمات إسرائيل على (غزة) .. اشتد معها خوف أبى علينا ، ذلك الخوف الذي راح يتزايد بصورة واضحة ؛ حتى وصل به أن يجمعنا في حجرة واحدة ..

وكعادتي رحت أتقلب فوق فراشي في محاولة منى الإمساكَ بحبال النوم الطويلة ، ألمح أبى بطرف عيني وهو مستلق على ظهره يحدق بشدة في صورة (القدس) بحجمها الكبير، وهى تتربع في شموخ على حائط الحجرة، أرى في عينيه دموعاً تود الفرار ، لولا تماسكه الشديد الذي عاهدناه فيه، تلك الدموع التي أراها دوماً تقف على بابي عينيه كلما نظر إلى الصورة ، راح يتحرك في بطء شديد ؛ لينام على شقه الأيمن، ظل يحدق في أمي التي راحت في سابع نومة ، وكعادته راحت تتحرك أصابعه في بطء شديد وفى آلية منتظمة ، حتى تتوقف فوق بطن أمي المنتفخة عن آخرها ، ثم راح يحدث نفسه في تمن :

_ يا رب يكون ولد.. نعم ولد ليكون اسمه (صلاح الدين) ؛ فقد طال انتظاري له ..

تلك الكلمات التي كانت أول ما سمعته وأنا في بطن أمي،

وعندما حان موعد خروجي صدمته رؤيتي ..

اختفى من وجهه كل شوق في سعادة الانتظار ، وقف للحظات غارقاً في العرق المتساقط من وجهه ، وهو يفكر في هزيمته التي لم يتوقعها قط ، حتى وجد نفسه ينسحب

رويداً ..

رويداً
وعندما أخبرته أمي بحملها الجديد ؛ تهلل وجهه بابتسامة عريضة ، وعاد يردد تلك الكلمات مرة أخرى ، ومن ثم صدمته رؤية أختي الثانية ، ومع كل حمل جديد لأمي يعود ويحدث الجنين ..
يدعو..
ويدعو..
وينتظر ..
وفى كل مرة كان وقع المفاجأة عليه ثقيلاً ثقل الحجر ، حتى وصل عددنا تسع بنات .. نعم تسع بنات ..
(مثل القمر تماماً).. كما قالت أمي ، والتي دوماً ترمى بها في وجه أبى ، عندما تراه ينظر إلينا في حزن .
كثيراً ما تمنيت أن أمسح عن عينيه ألم الانكسار ، وفى كل مرة أكتشف أنى لست (صلاح الدين) الذي ينتظره ..
راح النوم يصارع جفوني ..
سريعاً أنهزم أمامه كعادتي ، تاركة أبى ما زال يدعو الله
خوفي الشديد عليه راح يجثم على صدري رويداً.. رويداً ..
ليجعله ضيقاً حرجاً ، وقبل أن أرفع راية استسلامي لسلطان النوم ، رحت أسأل نفسي :
ترى هل ما ينتظره أبى سوف يأتي حقاً ....؟!!!!!